ثنائيّة الكلام والقول
دراسة تأصيليّة

أ.د. عبدالواسع الحميري *

-1-

بالعودة إلى مادّة"ك - ل- م" في لسان العرب، نجد أنّ الكلام قد يطلق ويراد به: الإفصاح، وقد يطلق ويراد به، القول، وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه، وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه، وهو الجزء من الجملة ، ومن أدلّ الأدلة على الفرق بين الكلام والقول إجماعُ النّاس على أن يقولوا:"القرآن كلام الله"، ولم يقل أحد من النّاس إنّه"قول الله"؛ لأنّ هذا_كما يقول صاحب اللّسان_ موضعُ ضيّقٌ متحجّرٌ؛ لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيءٍ من حروفه. لذلك عبّر عنه بالكلام الذي لا يكون إلاّ أصواتاً تامّةً مفيدةً[1].

أمّا فعل القول :"قال" فلا يقع في كلام العرب_كما يذكر سيبويه_ إلاّ على ما كان كلاماً، لا قولاً ، على معنى أنه يطلق على ما يكون بمثابة الجمل التّامة المفيدة .

---

* قسم اللغة العربية – كلية اللغات – جامعة صنعاء – رئيس منتدى الناقد العربي (صنعاء).

ويسمّى الرّأي والاعتقاد قولاً ، وإن لم يعبّر عنه بصوت؛ باعتبار أنّ ذلك ممّا يخفى ، ولا يعرف إلاّ بالقول ، أو بما يقوم مقامه من شاهد الحال ، والجمع أقوالٌ وأقاويلٌ. ومنه: القَالَ والقِيل والمقال والمقالة. ومِقْوَال : حَسَنُ القولِ ، لَسِنٌ، ويقال: كثُرَ القالُ والقِيلُ. والقَالَةُ بين الناس: كثرة القول ، وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكِي البعض عن البعض، ومنه الحديث:"ففشت القَالةُ بين الناس". والمِقْوَلُ : اللّسان (أداة القول ووسيلته). والقَيْلُ : المَلِكُ من ملوك حِمْيَر في اليمن ، يقول ما يشاء. وأصله: قَيِّل، وجمعه أَقْوَالٌ وأقيالٌ؛ سمّوه بذلك كونه ممّن يعتمد على قوله ، ويقتدى به، ولكونه متقيّلا لأبيه. قال ابن الأثير: الأقوال جمع قيِّل، وهو الملك النّافذ القول والأمر. والقَوْلُ: يستعمل في معنى الحكم، والعرب تجعل القولَ عبارة عن جميع الأفعال (لعله يريد: جميع الأفعال الواعية المعبّرة عن نسق فكريّ أو أيديولوجيّ، كما سنرى لاحقا) ، وتطلقه على غير الكلام باللّسان، أو على غير ذي لفظ [2] قوله: فقالت له العينان سمعاً وطاعةً، وقال الحائط: سَقَطَ. وقال به: حكَمَ واعتقد واعترف وغلَبَ. وقال عنه: رَوَى. وقال له: خاطَبَه. وقال عليه: كذب وافترى، كقوله تعالى:"وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون[3]". وقال فيه: اجتهد. وقال بيده: أهوى بها. وقال برأسه: أشار. وقال برجله: مشى. وقال بثوبه: رفعه. وإذا دخل على القَول حرفُ الاستفهامِ صار مشكوكاً فيه، فأشبه الظنّ [4] .

-2-

ومن جملة ما سبق يتضح أنّ القول، قد يطلق :

- ويراد به الملفوظ المركّب من الحروف المبرز بالنّطق؛ مفرداً كان أو مركباً (جملةً).
- وقد يطلق ويراد به القابلُ لأن يلفظ، بوصفه المعنى المتصوّر في نفس الكائن المتلفّظِ قبل أن يبرزه باللفظ، أو بالأحرى قبل أن يلفظه إلى الخارج ، بدلالة قوله تعالى :{ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله}[5] . فجعل تعالى ما يتردد في نفوسهم من كلامٍ داخليّ معبّرٍ عن معتقدهم قولاً .

- وقد يستعمل (القول) للدّلالة على مَقَالَةِ المتلفّظِ ، أي على معتقده أو مذهبه في الحياة ، أو على طريقته في النّظر إلى الأشياء والحكم عليها ، متضمّناً طريقتَه في التفكير وفي التّعبير عموماً. ومنه قولهم : فلان يقول بقول أبي حنيفة، بمعنى يحذو حذوه في النّظر إلى الأشياء والحكم عليها، أو يجري قوله في الأشياء أو الأوضاع مجرى قوله ، أو يسير في طريقته.
- وقد يستعمل للدّلالة على المَقُول، أو بالأحرى على (ما يوحي به حال) الشّيء. ومنه قول الشّاعر [6] :

امتلأ الحوض وقال: قَطْنِي مهلاً رويداً قد ملأت بطني

- وقد يطلق ويراد به مجرّد العناية الصّادقة بالشّيء ، ومنه قولهم : فلان يقول بكذا، أي يهتمّ ويعتني ، أو يجري قوله في الشّيء مجرى من يهتمّ به ، ويحرص عليه.

-3-

وهذا يقتضي:

- أنّ القول هو الملفوظ بوعي اللاّفِظِ وإرادته ، بوصفه المعبّر عن مقالته؛ عن عقيدته ، أو عن رؤيته للعالم ، أو عن مذهبه أو طريقته في فهم الأشياء والحكم عليها ، أو هكذا يجب، بدليلين :
- الدّليل الأوّل قوله تعالى:"ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوسُ به نفسُه ونحنُ أقربُ إليه من حَبلِ الوريد [7] إذ يتلقّى المتلقيانِ عن اليمين وعن الشّمالِ قعيد (17) ما يلفظُ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ (18).

ففي الآية إشارة إلى حقيقة الكلام المتكلّم داخليّاً الصّائر قولاً ملفوظاً ، وكيف يبدأ رحلةَ الوجود أو التّحقّق؛ حيث يبدأ كلاماً نفسيّاً داخليّاً ، أي كلامَ وسوسةٍ في نفس الكائن المتكلّم، لينتهي إلى كلامٍ متكَلَّمٍ خارجيّاً (يتكلّمه كيانه)، أي إلى قولٍ ملفوظٍ ، فقوله تعالى:"ونعلم ما توسوس به نفسه ...إلخ" فيه إشارة إلى كمال علمه وإحاطته تعالى ، ليس فقط، بما نقوله للآخرين ، أو بما نتكلّمه

إليهم من كلامٍ مسموعٍ أو مقروءٍ ، بل بما نتكلّمه داخليّاً من كلامٍ نفسيّ ، أو بما تقوله أنفسنا التي بين جنبينا لنا. المراد : إننا نعلم ما تُكلّمُ به الإنسانَ نفسُه من كلامٍ داخليّ (كلام وسوسة). أو إننا نعلم ما يعتمل في دَخِيلَةِ الإنسان من كلام داخليّ خاص (حديث النّفس) ، إلاّ أنّنا، على الرّغم من علمنا بذلك ، لا نؤاخذه عليه ، أو لا نأمر الملائكةَ الرّصّادَ برصد ذلك عليه.

وفي الآية إشارة إلى واحد من أهمّ دواعي الكلام المتكلّم خارجيّاً (ملفوظ القول) ، وكأنّ الأصل في الكلام المتكلّم خارجيّاً أنّه يبدأ كلاماً متكلّماً داخليّاً؛ تتكلّمه نفسُ الكائنِ المتكلّم إليه كي يفعل ما تؤمره به نفسه ، أو يكفَّ عن فعل ما تنهاه نفسُه عن فعله من دواعي الوسواس الخنّاس ، ما يوحي بأنّ الإنسان مدفوعٌ إلى القول/الكلام بدواعٍ ودوافعَ داخليّةٍ صِرْفَةٍ؛ رغبة ، رهبة ، حرص...إلخ . أو لنقل: إنّه مجرورٌ إليه بالرّغبة والرّهبة والهوى ، وإن كانت الآية ، قد أقرّت أو قرّرت، بالأحرى ، أنّه تعالى لا يؤاخذ الإنسانَ على ما يعلمه من كلامٍ داخليّ تتكلّمُه (أو توسوس به) نفسُه، مهما جمح به أو اشتط فيه ، وإنّما يؤاخذه تعالى ، فقط ، على جنس خاص من الكلام المتكلّم خارجيّاً ، هو الكلام المعبِّر عن وعي المتلفّظ وإرادته ، أو هو الكلام (المقاليّ) المعبّر عن حضور مقالات المتلفّظين ، أي عن حقيقة مواقفهم ومعتقداتهم .

- الدّليل الثّاني: قوله (ص) مخاطباً أصحابَه :"قولوا بقولكم ، أو بعض قولكم ، ولا يَسْتجرينّكم الشيطان [8].

إذ المرا د: قولوا بمقالة أهل دينكم وملّتكم (مقالة أهل الإسلام والإيمان في أنبيائهم)؛ بمعنى : أجروا قولَكم المدحيَّ فِيَّ مجرى القول المعتاد من أهل دينكم وملّتِكم ، أي سمّوني نبيّاً ورسولاً ، كما سمّاني الله ، ولا تسمّوني ملكاً أو سيّداً ، كما تسمّون رؤساءكم وزعماءكم؛ لأنّ القوم كانوا يحسبون السّيادةَ بالنبوّةِ كالسّيادة بأسباب الدّنيا . وقوله"بعض قولكم" المراد: المطلوب منكم الاقتصاد في قول المدح ، وعدم الإسراف فيه؛ قال ذلك (ص) ؛ لأنهم كانوا قد أجروا قولَهم فيه

مجرى المدح المبالغ فيه ، أو مجرى الإفراط في المدح ، أو لأنّهم كانوا قد مدحوه ، وبالغوا في مدحه ، كما يبالغ أتباعُ الملوكِ في مدح ملوكهم، فنهاهم (ص) عن ذلك. فكأنّه (ص) أراد أن يقول لصحابته : أجروا في ما يحضركم من القول المدحيّ ، ولا تتكلّفوا فيه ، كأنّكم وكلاء الشّيطان تنطقون بلسانه [9].

-4-

هذا على أنّ الأصل في القول- كما سبقت الإشارة- أنّه عبارة عن ملفوظ القَيْلِ (رمز السّلطة السّياسية أو الاجتماعيّة في اليمن) المعبّر عن سلطته الفعليّةِ (النّافذة) في الآخرين ، أو عن إرادته في التسلّط عليهم . فالقيل- كما تقول معاجم اللّغة- هو السّيد الشّريف في قومه ، النّافذ فيهم قوله ، أو هو الملك من ملوك حمير؛ يقول ما يشاء ، ليقتدى بقوله ، وينفذ.

وهذا يقتضي أنّ القول ، في الأصل ، عبارة عن ملفوظ السّلطة أو إرادة التسلّط؛ إنّه الملفوظ من موقع العُلوّ أو التّعالي ، أو من موقع القَوَامَةِ والقيّومِيّة. وهذا يقتضي أنّه من موقع مفارقة الكائن المتلفّظ وبينونته عمّا عنه يتلفّظ ، وعمّا به، وفيه ، وله أو لأجله ، وإليه ، يتلفّظ ، ومن ثمّ ، من موقع الأمر والنّهي ، أو التّكليف والإلزام ، بدلالة قوله تعالى مخاطباً نبيّه (ص):" إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً"[10]. حيث الذّات الإلهية المتكلّمة بكلام هذه الآية ، مُفَارِقةٌ ذاتاً وصفاتٍ للأنت (المخاطَب المباشر) في خطاب هذه الآية ، ممثّلاً في نبيّنا محمّدٌ (ص). هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فإنّه تعالى قد خاطب نبيّه (ص) بصيغة الجمع" إنّا" الدّالة على عظمةِ المتكلّم ، أو على تعظيمه نفسَه جلّ وعزّ. ثمّ قال تعالى بعد ذلك:"سنلقي"بصيغة الجمع ، ولم يقل:سألقي"بصيغة الإفراد ، ليؤكّد فكرة التّعظيم المشار إليها ، وأنّه هو وحده المتفرّد بالأمر والنّهي ، من حيث هو وحده المخاطِب بخطاب التّكليف ، بوصفه خطاب الأمر والنّهي والإباحة والنّدب والكراهية.

على أنّه تعالى قد قال ، فضلاً عن ذلك:"سنلقي" من الإلقاء . ولم يقل: سننزل ، أو سنرسل ، أو سنقول لك قولاً من شأنه أنّه ثقيل..إلخ ، ومعلوم أنّ الإلقاء :

- لا يكون إلاّ من عَلُ ، أو من الموضع العالي بالفعل ، أو الذي يفترض فيه أنّه كذلك . هذا فضلاً عن أنّ الإلقاء :
- لا يكون إلاّ للشّيء المحسّ؛ المرئيّ أو المتحيّز ، أي الذي له وجود حسّيّ ، ويشغل حيّزاً زمانيّاً مكانيّاً (في فضاء الرّؤية) ، أو الذي له ثقل ماديّ أو معنويّ عند من هو ملقىً إليه وعليه ، أي أنّه لا يكون إلاّ للشّيء الذي له وزن، أو قدرة على التّأثير الماديّ أو المعنويّ ، أيّ له قيمةٌ ماديّةٌ أو معنويّةٌ ، أو له تبعاتٌ وآثارٌ تلحق من هو ملقىً عليه ، بحكم أنّه (القول) يتضمّن مطالب إنجازيّةً ؛ فهو يلزمه بفعل أشياء، وتجنّب فعل أشياء أخرى.
- ثمّ قال تعالى ثانياً: "سنلقي عليك" فجعل فعل الإلقاء (بملفوظ القول) من عَلُ فِعْلَ إلقاءٍ عليه (ص) ، ولم يجعله فِعلَ إلقاءٍ إليه؛ فلم يقل مثلاً : إنّا سنلقي إليك، فاختار حرف الجرّ الدّال على الاستعلاء (على) دون حرف الجرّ الدّال على انتهاء الغاية (إلى) ، ليؤكّد فكرةَ العُلوّ والتّعالي المشار إليها آنفا ، ويرسّخها .

على أنّ الأمر، في خطاب هذه الآية ، لم يقف عند هذا الحدّ ، بل تجاوزه ، فوصف تعالى قولَه المتعالي الذي سيلقيه على النبيّ (ص) بأنّه"ثقيل"، فزاده ثِقلاً على ثِقَله ، وقوّةً (في التّأثير) على قوّته.

وهنا يكون الخطاب القرآنيّ قد أشار ، في هذه الآية ، إشارةً واضحةً ، إلى حقيقة ملفوظ القول ، وأنّه ، في الأصل ، عبارة عن الملفوظ من موقع العُلوّ أو التّعالي ، أي من موقع السّلطة أو إرادة التسلّط. وهذا يقتضي أنّه من موقع القَوامة والقيّوميّة؛ قوامة الكائن المتلفّظ على عالم ما يتلفّظ عنه ، وفيه، وبه ، وله أو لأجله ، وإليه، وقيّوميّتِه عليه.

وبما أنّ الأصل في القول ، أنّه الملفوظ من موقع القوامة والقيّوميّة ، بالمعنى المشار إليه ، فهذا يقتضي أنّه الملفوظ من موقع الإلقاءِ والتّلقي (التّبادل) الجاهز (إلقاءَ وتلقي الملفوظ الجاهز ، أي المصوغ صياغةً نهائيّةً). لذلك فهو (ملفوظ القول) من جنس ما يلقى (من سلطة عليا) على المتلفّظ إليهم إلقاءً ، ويُتلقّى منهم تلقّياً ؛ لأنّ من مقتضيات مقام إلقاء ملفوظات الأقوال أنّه أيضاً مقام تلقٍّ؛ فمن يلقي إليك بملفوظاته النّاجزة إلقاءً ، لاشكّ أنّه يكون قد تلقّى تلك الملفوظات تلقيّاً ، لذلك فهو يلقيها إليك كما تلقّاها من غيرك. يصدق هذا ، على الأقلّ ، على حالنا نحن البشر كافّةً ، لذلك وجدنا العرب تقول : لا تُقَوِّل فلاناً ما لم يقل ، بمعنى لا تَدَّعِ عليه أمراً لم يفعله ، أو لا تنسب إليه قولاً لم يقله. ويقولون :"قَوّلَنِي فلانٌ حتى قلتُ" بمعنى فرض عليَّ شروطَ قولِه ، أو بمعنى علّمني وأمرني أن أقول ما يريد منّي أن أقول.

وقد روي عن عليّ عليه السّلام: أنّه سمع امرأةً تندب عمر رضي الله عنه[11] فقال : أمّا واللهِ ما قالتْهُ ، ولكن قُوِّلَته" بمعنى لُقّنَته وعُلّمَته ، أو ألقي على لسانها من عالم الغيب ، يعني أنّ قولها في عمر من جانب الإلهام ، وهذا يقتضي أنّه (عمر) حقيقٌ بما قالت فيه المرأة . ومنه قوله تعالى:"ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل[12] ".

-5-

على أنّ القول (في القرآن) قد يطلق، ويراد به الملفوظ النّاجز(في الأزل) أو السّابق في الوجود على وجود المتلفّظ إليهم ، وهنا يتطابق، في معناه ، مع معنى الخطاب عند بعض الفرق الإسلاميّة التي أجازت أن يطلق على كلامه تعالى ، في الأزل ، خطاباً حتى قبل وجود المخاطَبين به[13]. ويصدق هذا بخاصّة ، على خطاب الوعد والوعيد الإلهيّ المعبّرِ أو المجسّد حضورَ العدلِ الإلهيّ في البشر ، وهو الخطاب/القول الذي وصفه تعالى بالثّبات والرّسوخ وعدم التبدّل ، فقال مؤكّداً هذه الحقيقة:"ما يُبَدّلُ القولُ لديّ وما أنا بظلاّمٍ للعبيد[14]". إذ المراد بالقول هنا،

خطاب الوعد والوعيد(أو ملفوظه) المتضمّن تقرير الثّواب والعقاب المستَحَقّيْنِ للمكلّفين على أعمالهم.

إذا صحّ هذا وثبت عن القول، صح القول ، تبعاً لذلك: إنّ القول هو كلّ ما نقوله - ما نُفصِحُ عنه ونُبيْنُ بوعيٍ وإرادةٍ- في كلامنا، أو خلال فعل تلفّظِنا، أو هو ما نلقيه إلى الآخرين، ونتلقّاهُ من كلامهم ؛ أو لنقل: إنّه كلّ ما يتبادله القائلون ، أو يتداولونه فيما بينهم حولَ موضوعٍ ما بعينه ، بدلالة قوله تعالى أيضاً:"ولو ترى إذ الظّالمون موقوفون عند ربّهم يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ يقول الذين استضعفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين [15] .

فالآية تشير إلى طبيعة القول ، وأنّه عبارة عمّا يتبادله القائلون حول موضوع ما يُهِمّهم جميعاً ، عبر إمكاناتهم في الكلام أو التلفّظ. والمراد بقوله تعالى: (يرجع بعضهم إلى بعض القول...) أي يتراجعون في الكلام فيما بينهم باللّوم والعتاب ، أو يتداولون مقالةَ اللّوم والعتاب فيما بينهم.

فالقول إذن هو ما يتكلّمه كلامنا الواعي المسؤول ، أو هو ما يتردّدُ رَجْعُهُ في ملفوظاتنا ، وهذا يقتضي أنّه ما يجب البحث عنه في كلامنا الذي ننجز ، ما يجب فهمه واستيعابه ، أو قراءته وتدبّره بالأحرى ، بدلالة قوله تعالى:"أفلمْ يدّبّروا القولَ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين [16] ". وهذا يقتضي أنّه (القول) هو دليلنا إلى الحقّ أو إلى الحقيقة المضمّنة في كلامنا، أو المعبّر عنها في كلام الله تعالى النّازل على نبيّه محمدٍ (ص) بدلالة قوله تعالى:"ولقد وصّلنا لهم القولَ لعلّهُم يتذكّرون[17] ". وقوله تعالى:"وهُدُوا إلى الطيّب من القولِ وهُدُوا إلى صراطِ الحميد[18] ".

-6-

وبما أنّ الأصل في القول أنّه قد وجد مرتبطاً بالسّلطة المعبّر عنها، ومنفصلاً عن قائله ، في الوقت نفسه، فهذا ما جوّز نِسبَتَه إلى قائله الحقيقيّ ، أو إلى راويه ، أو ناقِلِه ، لذلك فالقول هو قولُ الرّاويّ ، كما هو قول المرويّ عنه

(صاحب القول ، أو منشئه ذاته) بدليل قوله تعالى:"إنّه لقولُ رسولٍ كريمٍ وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون[19] ". فقد نسب تعالى القول (القرآن) الذي هو قولُه، في الأصل ، إلى رسوله محمد (ص) المبلّغ عنه تعالى ، وهذا ممّا يجوز في ملفوظ القول ، خلافاً لملفوظ الكلام الذي لا تجوز نسبته إلاّ- فقط- لمتكلّمِه الأساس، أي لمنشئه أو مبدعِه في الأصل فقط ، لذلك فأنت لا تقول: هذا كلامُ فلانٍ ، إلاّ إذا كنت تعني أنّ فلاناً هذا هو من تكلّمَه ، لا غيره.

وهذا يقتضي أنّ فعل القول عموماً يختلف عن فعل التكلّم عموماً ، من حيث إنّ أحدنا قد يتكلّم ، ويواصل فعل التكلّم لفترةٍ طويلةٍ- حسب هيدجر [20]- لكن دون أن يكون قد قال لنا شيئاً، وبالعكس يحدث أحياناً أنّ أحدنا قد يصمت، ولا يتكلّم ، ويكون في إحجامه عن الكلام، قد قال لنا الكثير.

وهو ما يؤكّد أنّ فعل القول يتضمّن- بالضّرورة– الإبانة والإظهار. أمّا فعل التكلّم فلا يتضمّن ذلك بالضّرورة. فالقول يتيح لشيءٍ ما أن يظهر ، أن يكون مرئيّاً ومسموعاً ، أو مدرَكاً بإحدى وسائل الإدراك القائمة في كلٍّ مِنّا.

-7-

وإذا استقام لنا وصف القول عموماً بأنّه عبارة عن الملفوظ أو القابل لأن يلفظ؛ فإنّه سيستقيم لنا وصف الكلام عموماً ، بأنّه، في الأصل ، عبارة عن عمليّةِ التلفّظِ . وهذا يقتضي أنّ الأصل في فعل التكلّم/التلفّظ ، أنّه يتضمن ، فعل القول كنتيجةٍ له ، أي بوصفه أحد مكوّناته الأساسيّة الضّروريّة ، وهذا انطلاقاً من أن أفعال التكلّم ، وفقاً لـ"زيسيسلاف زورزنياك [21]- تعدّ أفعالاً كليّةً مركّبَةً؛ إذ هي تتكوّن ، في الأغلب الأعمّ ، من ثلاثة أفعال جزئيّةً :

1- من فعل التّحقّق التلفّظيّ؛ النّطقيّ أوالكتابيّ.
2- ومن الفعل الإنجازيّ (القَضَويّ) ؛ أي من الدّور الإنجازيّ للملفوظ.
3- ومن الفعل القوليّ المنطوي ، دوماً على فعل الإحالة (على موضوع ما أو على عدّة موضوعات) ، وعلى فعل الحمل (أو التّخصيص).

وهذا يقتضي أنّ كلّ فعل تكلّم (تلفّظ) إنّما يقوم في الأساس ، على قاعدتين رئيستين :

- ❖ الأولى: القضويّة؛ حيث كلّ فعل تكلّم (تلفّظ) يجب أن يرتبط بمضامين قضويّة ، أو يجب أن تشكّل في مجموعها قضيّةً ما (أو حكماً).

ومن هنا نفهم سرّ تعريف الجرجانيّ للقول ، بأنّه :"اللّفظ المركّب في القضيّة الملفوظة ، أو هو المفهوم المركّب العَقليّ في القضيّة المعقولة [22].

- ❖ الثّانية : الاختلاف والتّفرّد؛ حيث كلّ فعل (تكلّم) يجب أن يختلف عن كلّ فعل (تكلّم) آخر (سابق أو معاصر) [23] ، وإن كان هذا لا يمنع- حسب د. فوندرليش [24]- أن يكون لكلّ فعل تكلّم علاقة عرفيّة بالأفعال الكلاميّة الأخرى من جنسه (السّابقة واللاّحقة). وهذا يقتضي،على الأقل ، حسب رأي هذا الباحث ، أنّ لكلّ فعل تكلّم علاقةً (ما) بعمليّاتٍ (أخرى) ذات طبيعةٍ غير تواصليّة ، وأن كلّ فعل كلاميّ مفرد يفضي، في نهاية الأمر ، إلى تأسيس علاقات التزام خاصّة [25] .

-8-

وهذا يقتضي أنّ القول عبارة عن كلّ ما يقال في كلامنا المركّب ، أو هو عبارة عن كلّ ما يصاغ لغويّاً عبر إمكانات تكلّمنا الخاصّ ، إنّه عبارة عمّا يتكلّمه كلامُنا في كلّ مرّةٍ، بطريقةٍ مختلفةٍ.

أمّا الكلام/التلفّظ فعبارة عن عمليّة الصّوغ (الكليّة المركّبة) التي ننهض بها في كلّ مرّةٍ بطريقةٍ مختلفةٍ. لذلك فأن يكلّم بعضنا بعضاً ، فهذا يعني أنّ نتناول قولَ شيءٍ ما في كلامنا؛ أن يظهر بعضنا للبعض الآخر ما يقوله ذلك الشّيء عن نفسه ، أو ما يقوله كلامُنا نحن عنه ، إنّه يعني- حسب هيدجر [26] إظهارَ ما لم يكن ظاهراً من قبل ، أو هو جُمّاعُ قول شيءٍ ما ، وأن يأنس كلّ منّا بدوره إلى ما هو مقول .

لذلك نجد أنّ ما يتكلّمه كلّ مِنّا في كلامه ، يختلف باختلاف طرائقنا في تكلّمه ، وباختلاف غرضنا من تكلّمه؛ فما نتكلّمه في كلام المحادثة يختلف جذريّاً عمّا نتكلّمه في كلام المحاضرة أو في كلام الخُطبة أو النّصيحة أو الموعظة... وهكذا.

-9-

ومن هنا يمكن القول : إنّنا في أفعال التّكلّم نعيد إنتاج الأقوال المقولة من قبل ، أو نعيد بالأحرى إنتاج الأقوال والمقولات والمقالات ، وكلّ منجزٍ سابقٍ؛ نفكّكُها ونعيد تركيبها بطريقةٍ تدلّ علينا : ما يحتّم علينا الإصغاء والحوار مع منطق تلك الأقوال ، وإعادة صياغتها ، على نحو يمنح مقالنا طاقةَ التكلّم الدّائم.

فإذا كان امرؤ القيس مثلاً قد تكلّم كلامَه الشّعريّ قبل عشرات القرون ، إلاّ أنّ كلامَه الشّعريّ ذاك لا يزال يتكلّم إلى كلّ مِنّا (مقالته الخاصّة) بطريقةٍ مختلفةٍ ، أو لنقل: إنّه لا يزال يقول لنا الكثير ممّا لم يكن قد قاله لغيرنا من قبل، فهو لا يزال يتكلّم إلى كلّ مِنّا ، في كلّ مرّةٍ ، كلاماً جديداً.

وهو ما يعني أنّ القول هو ما نعيد إنتاجه بواسطة فعل التكلّم الحُرّ الخاصّ بنا في كل مرّةٍ ، لأنّ الأصل في فعل التكلّم أنّه كُلّيٌّ؛ فرديّ وجمعيّ؛ عام وخاصّ. أمّا فعل القول ، فالأصل فيه أنّه جمعيّ عامٌ أو عموميّ.

فعل القول معياريّ ؛ يخضع لمعايير جاهزة ، ويعبّر عن قيم اجتماعيّة قارّةٍ [27]. أمّا فعل الكلام ، فالأصل فيه أنّه مزيجٌ من المعيار واللاّمعيار ، لذلك فهو بدئيّ ، حادثٌ ، غير قابلٍ للمحاكاة والتّكرار .

-10-

في فعل التكلّم الحيّ نتكلّم ما نحن ، وفي فعل القول نقول ما ليس نحن. في فعل القول نقول المؤتلف المطابق؛ ما قيل وما يقال دوماً ، لذلك فنحن في القول نعارض استعمال اللّغة على نحو مختلف أو مخالف للمعيار.

في الأقوال نقول مقالاتنا المعبّرة عن مواقفنا ومعتقداتنا ، وفي الكلام نتكلّم ذواتنا ، إمكاناتنا ؛ اختلافنا وتفرّدنا ، مواقفنا الخاصّة ممّا نتكلّم عنه ، وبه، وفيه ، وله ، وإليه ، داخلاً في ذلك موقفنا من كلّ ما قيل ويقال ؛ فهمنا الخاصّ له ، طريقتنا الخاصّة في فهمه ، وفي قوله ، وبهذا يصبح كلامنا كلاماً متكلّماً مقالاتنا الخاصّة؛ أعني أنّه يصبح منتجاً لمقالاتنا الخاصّة ، وناتجاً عنها ، في الآن نفسه.

لذلك نقول: إنّ القول، بشكل عام ، هو ما يقوله كلامنا ، بشكل عام؛ ما يتفوّه به أو يفصح عنه- في حال كان كلاماً مباشراً- وما يوحي به أو يلمّح- في حال كان كلاماً غير مباشرٍ. إنّه ما نعيد قول مقاله باستمرار ، وبأشكالٍ مختلفةٍ ، أو لنقل: إنّه ما نتكلّمه في كلامنا مراراً ، وبطرائق مختلفةٍ. والقول الشّعريّ لشاعرٍ ما ، انطلاقاً من ذلك، هو ما يتكلّمه ذلك الشّاعر في كلّ مرّةٍ ، أو في كلّ قصيدة من قصائده بطريقة مختلفة، أو لنقل: إنّه ما يعيد ذلك الشّاعر إنتاجه في كلّ نصٍّ من نصوص كلامه الشّعريّ كافّةً.

ومن هنا فالقول الشعريّ لشاعرٍ ما ، هو ما يمثّل الجانبَ القارّ في كلام ذلك الشّاعر ، أو هو ما يمثّل بنيةَ كلامِه الشّعريّ الذي يتكلّمه باستمرار؛ إنّه ما يمثّل رؤيته للحياة ، موقفه الإيديولوجيّ منها ؛ عقيدتَه (رؤياه للعالم) ؛ مقالتَه التي ينطلق منها في كلّ قولٍ شعريّ يقوله ، لذلك فهو(القول الشّعري) بمثابة الشّيء الذي يعاد إنتاجه شعريّاً ، في كلّ مرّةٍ، بواسطة فعل التكلّم الشّعريّ ذاته ، أو لنقل: إنّه بمثابة مادّة الكلام الشّعريّ ونواته ، أو خلفيّته المرجعيّة ، ويدخل في تكوين الخطاب الشّعريّ ، بوصفه ما يخاطِب به الشّاعر باستمرار.

على أنّ الأصل في القول عموماً ، أنّه ملفوظ نتوجّه به إلى الآخرين ، أمّا الكلام فالأصل فيه أنّه ما نواجه به أو من خلاله وضعنا الكينونيّ في إطار الآخرين. لذلك فالأصل في الكلام أنّه ما يتكلّمنا إلى الآخرين ، ويتكلّم الآخرين إلينا ؛ بحكم أنّه يدفعهم ، على الدّوام ، إلى فضول التّكلّم في كلامنا ، ما يجعلنا نتعرّف

عليهم خلال عمليّة تكلّمهم. أمّا القول فعبارة عما نتكلّمه نحن إلى الآخرين؛ ما نقوله لهم بوعي وإرادة كاملين.

الكلام هو ما يفرض علينا وضعنا السّوسيو- أنطولوجي في إطار الآخرين أن نتكلّمه؛ لذلك فهو ما نقيم فيه ، وبه ، وله ، ولديه؛ إنّه عبارة عما يتكلّمنا إلى أنفسنا وإلى الآخرين من خلالنا ، وهذا يقتضي أنّه عبارة عمّا يُعلينا ، بمعنى يُظهِرنا أو يميّزنا عن الآخرين ، أو لنقل: إنّه ما يبرزنا مختلفِين عن الآخرين ، ويبرز الآخرين مختلفِين عنّا. وهذا خلافاً للقول الذي من شأنه أنّه عبارة عمّا يسقِطُنا في الآخرين ، أو عبارة عمّا يماثِلُنا بالآخرين ، ويماثِلُ الآخرين بنا؛ لذلك فالأصل في الكلام- كلامِنا- أنّه يفرض حضورَنا على الآخرين. أمّا القول فيفرض حضورَ الآخرين علينا ، ما يجعلنا مجرّدَ تابعين لهم؛ متكلّمين كلامَهم ، على نحو قد نتحوّل معه إلى مجرّد أجهزة بَثّ لقول مقالهم ، ليس إلاّ.

لذلك فالقول عبارة عمّا نتكلّمه في كلامنا ، بشكل مباشر أو غير مباشر ، إنّه ما نعبّر عنه أو نكشف عنه في كليّته كبنيةٍ ذهنيّةٍ مجرّدةٍ ، أو كمعنى كلّيّ.

-11-

على أنّه يمكننا أن نميز بين الكلام عموماً والقول عموماً ، بالقول ، تلخيصاً لكلّ ما سبق: إنّ الكلام عموماً يحمل بصمات المتكلّم عموماً ، وهو ما يفرض رقابة المتكلّم عليه ، ما يجعله بمنأىً عن التّحريف بالزّيادة أو النّقص ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإنّ فعل التّكلّم ، خلافاً لفعل القول ، دليلنا إلى الفاعل المتكلّم ، ودليل الفاعل المتكلّم إلينا ، فهو، من جهة ، يعدّ طريقنا إلى معرفته ، أو إلى التعرّف على هويّته ومن يكون ، فنحن نتعرّف على هويّةِ الكائن المتكلّم ، انطلاقاً ممّا يكونه في كلامه الذي يتضمّن_بالضّرورة_الدّلالة على كماله أو نقصه. ولذلك فهو- بالنّسبة للمتكلّم- بمثابة المرآة التي تعكس حقيقته وما يكون ، أو حقيقة وضعه وما يعاني.

ومن هنا جاء قوله تعالى ، حكايةً عن ملك مصر مع يوسف عليه السّلام:"وقال الملك ائتوني به استخلصْه لنفسي فلمّا كلّمه قال : إنّك اليوم لدينا مكينٌ أمينٌ"[28] . فقد جعلت هذه الآية من فعل التكلّم الصّادر عن يوسف عليه السّلام في حضرة الملك- جعلت منه الطّريقَ الوحيدَ إلى معرفة حقيقة يوسف وما قيل عنه ، وثبوت ما ادّعي له من صفات الكمال والعصمة التي أهّلته- فيما يبدو- لتبوء ما تبوّأَ من مكانةٍ مرموقةٍ عند الملك.

-12-

وهذا يقتضي أنّ الأصل في فعل التكلّم أنّه يُمَرئي المتكلّم في كليّته. أمّا فعل القول فيمرئي موقفَ القائل ممّا يقول ، وموقفه ممّن يتوجّه إليهم بقوله ، إنّه يمرئي فكرَ القائل وعقله ، فأفعال القول مرائي العقول ، أمّا أفعال الكلام فمرائي النّفوس والشّعور.

- الكلام مجلى وجود المتكلّم في كليّته. والقول مجلى وجود الحقيقة /السّلطة.
- في الكلام نعبّر عن ذواتنا ، أو عن هويّتنا وما نكون ، وفي الأقوال نعبّر عن آرائنا ومعتقداتنا ، أو عن مواقفنا وتصوّراتنا.
- الكلام دليل انفتاح المتكلّم علينا ، والقول دليل سلطته علينا.
- الكلام دليل المتكلّم إلى ذاته ، طريقه إلى الكشف عن ذاته ، أو إلى اكتشاف إمكاناته. والقول دليل القائل والمقول له إلى المقول ، ودليله إلى الحقيقة ، إلى السّلطة .
- الكلام يستمدّ سلطته، في الأصل ، من ذاته ومن الكائن المتكلّم فيه ، والقول يستمدّ سلطته ، في الأصل ، من سلطة المقال ، أو من سلطة الحقيقة المعبّر عنها ، أو من سلطة الفكر والأيديولوجيا .
- الكلام منسوب إلى المتكلّم ، في الأصل ، ولذلك فهو يتضمّن ، بالضّرورة ، دلائل النّسبة إليه ، بوصفها عناصر الملفوظيّة . والقول منسوب إلى السّلطة ، ولذلك

فهو يتضمّن ، بالضّرورة ، دلائل النّسبة إليها ، بوصفها عناصر الإيجاز ، والتّركيز أو التّكثيف ، والقوّة والتّماسك ، وسرعة النّفاذ في المتلقّي .

- الكلام- كلامنا- قناع الرّغبة ، والقول قناع السّلطة ، الحقيقية.
- فعل التّكلّم: مشروط بالتّلقائيّة أو العفويّة. وفعل القول مشروط بالتّكلّف والصّنعة؛ فالمقولة ، كما نعلم ، هي العبارة الدّالة على حقيقة علميّة ، ولذلك فغالباً ما توصف المقولة بالعلميّة؛ فيقال: هذه مقولة علميّة ، وهذا يعني ، أنّ وصف المقولة بالعلميّة يعدّ وصفاً راجعاً إلى مضمون العبارة ، من جهة ، وإلى طريقة بنائها ، من جهة أخرى ، أي بالنّظر إلى ما تتضمّنه العبارة من حقيقةٍ علميّةٍ ، وبالنّظر إلى طريقة بنائها باللّغة؛ من حيث إنها تخضع في بنائها لقوانين اللّغة المعياريّة الصّارمة : اختياراً وطريقةَ بناء ، ما يعني أنها (العلميّة) صفةٌ راجعةٌ إلى المدلول من جهة ، وإلى طريقة بناء الدّلالة ، من جهة ثانية .
- أمّا قولنا ، هذا كلامٌ علميّ ، فمعناه أنّه ينطوي على قدر من الدّقة والموضوعيّة ، ولا يعني بحال ، أنّه ينطوي على حقيقةٍ علميّة ، وعليه فالأقول أو المقولات تعدّ أدلّة ثبوت الحقائق ، أمّا الكلام فيعدّ دليل إثبات الهويّات.

-13-

- وقد تردّد لفظ القول ، بصيغة المصدر في القرآن الكريم كثيراً ، وتمحورت دلالته حول عدد من الدّلالات أبرزها : الحُكْمُ النّافذ ، والقضاء العادل ، والملفوظ المعبّر عن الإرادة النّافذة في الخلق والأمر ، فهو (القول) ملفوظ السّلطة النّافذ في المتسلّط عليهم ، إنّه ملفوظ القَيْل ، النّافذ في الآخرين ، أو لنقل: إنّه ملفوظ القَيْل المتضمّن أمراً ، أو نهياً ، أو حكماً نافذاً فيمن هو قَيْلٌ عليهم . إنّه ملفوظ السّلطة المعبّر عن إرادتها النّافذة في المتسلّط عليهم . أو لنقل: إنّه بتعبير آخر، أكثر دقّةً: الملفوظ المعبّر عن سلطةٍ، أو عن إرادة التّسلّط.
- أمّا الكلام فهو، في الأصل، التّلفّظ المعبّر عن وضع اللاّفظ عموماً، أو في سياق عمليّة التّلفّظ خصوصاً. وهذا يقتضي أنّ الكلام- خلافاً للقول- يمثّل

ضرورة المتكلّم؛ وهو يمثّل ضرورة وجود ، وضرورة إيجاد ، في الوقت نفسه. يؤكّد هذا ويدلّ عليه دلالةً مباشرةً ، أنّه تعالى جعل عقوبةَ نبيّه زكريا- حين تكلّم بكلامٍ زائدٍ عن الحاجة ، أو متجاوزٍ حدّ الضّرورة ، أي حين طلب إليه تعالى أن يريه الآيةَ الدّالة على صدق ما بشّرته به الملائكةُ- جعلَ عقوبتَه حبسَ لسانه عن الكلام التّواصليّ مع قومه مدّة ثلاث ليالٍ ، فقال تعال مقرّراً هذه الحقيقة :" قال ربّ اجعل لي آيةً قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثَ ليالٍ سويّا"[29]. قال بعض المفسّرين ، تعليقاً على الآية: اعتقد لسانه عن التّكلّم إلى الآخرين ، من غير مرضٍ ولا علّةٍ . وقال زيد ابن أسلم:كان يقرأ ويسبّح ، ولا يستطيع أن يكلّم قومَه إلاّ إشارة [30].

- ما يعني أنّ القول ، في الأصل ، عبارة عن الملفوظ من طرف واحد. أمّا الكلام فعبارة عن حوار بين طرفين .
- الكلام مرجعه وضع الكائن المتكلّم؛ شبكةُ العلاقات (المتآينة أو المتزامنة) التي تربطه بالآخرين ، والقول مرجعه المقول ، في الأعيان أو في الأذهان .
- القول- في الأصل- هو الملفوظ المعبّر عن موقف المتلفّظ الثّابت والرّاسخ من الآخرين.
- والقول هو المعتقد ، أو هو الملفوظ المعبّر عن معتقدات المتلفّظِين ومواقفهم ، وآرائهم، وكلّ ما من شأنه أن يثاب عليه المتلفّظ أو يعاقب.
- القول ما به تثبت براءة القائل أو إدانته ، ولذلك فهو مناط الثّواب والعقاب.
- الأقوال موضوعاتها مواقف القائلين ومعتقداتهم ، ولذلك فهي تتشابه تشابه المواقف والمعتقدات المعبّر عنها.
- أمّا الكلام، فموضوعه وضع المتكلّم الخاصّ في سياق التكلّم الخاص ، ولذلك يختلف الكلام بحسب اختلاف أوضاع المتكلّمين ، ودوافع تكلّمهم.
- القول دليل صدق المتكلّم أو كذبه ، والكلام دليل حضور المتكلّم وفاعليّته.

- القول مرتبط بالحقيقة ، أو بإرادة التّعبير عنها ، على الأقلّ. على معنى أنّ القائل لا يقول إلاّ ما هو حقيقيّ ، أو ما يعتقد أنّه كذلك.
- الكلام دليل حضور المتكلّم فينا ، والقول دليل سلطته علينا.
- القول دليلنا إلى قلب القائل وعقله، دليلنا إلى معتقداته وأفكاره وتصوّراته ، وما يخفي أو يبطن من المعتقدات والمواقف والآراء.
- أمّا الكلام فدليلنا إلى الكائن المتكلّم في كليّته ، في عقله وقلبه ، في روحه وشعوره، في وعيه ولاوعيه.
- القول الملفوظ الذي له ظاهر وله باطن ، ومن شأن الظّاهر أنّه قد يتطابق مع الباطن ، وقد لا يتطابق ، ومن هنا يأتي وصفه بالزّيف ، أو بعدم الصّدق.
- الأصل في القول ، أنّه الملفوظ المعبّر_بصورة مجرّدة_عن حقيقة المواقف والمعتقدات والآراء التي يتبنّاها القائل. أمّا الكلام فهو الملفوظ المعبّر– كما قلنا– عن وضع المتلفّظ في سياق التلفّظ ، وهذا يقتضي القول عن الكلام : إنّه دليلنا إلى المتكلّم في كليّته ، في ظاهره وباطنه أو في سرّه وعلنه ، أو في وعيه ولا وعيه ، أمّا القول فدليلنا إلى عقل القائل وقلبه فقط.
- القول– في أصل نشأته وتكوينه– هو الملفوظ المعبّر عن إرادة القائل النّافذة في الآخرين ، ولذلك فكلّ استهدافٍ للقول بالتّحريف أو التّغيير ، يعدّ استهدافاً لإرادة القائل ، وخروجاً عن طاعته أو سلطته في الآخرين.
- أمّا الكلام فهو الملفوظ المعبّر عن هويّة المتكلّم ، ولذلك فكلّ استهدافٍ لكلام المتكلّم بالتّحريف أو التّغيير ، يعدّ استهدافاً لهويّةِ المتكلّم نفسه بالتّشويه أو المسخ.
- وقد دلّ على الأوّل قوله تعالى:"فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلِم عن مواضعه ونسوا حظّاً ممّا ذكّروا به ولا تزال تطّلِع على خائنةٍ منهم إلاّ قليلاً منهم[31] " فالكلِم المحرّفة هنا: جمع كَلِمة ، قيل: إنهم كانوا يبدّلون ألفاظ كلمه تعالى ، ويغيّرونها عن مواضعها في نصوص

أقواله تعالى المعبّرة عن إرادته [32]. وقيل : إنّ ذاك كان من جهة معاني ألفاظ كلمه تعالى ، بحملها على غير ما قصد به تعالى واقتضاه منطوق قوله ، وهذا- حسب الرّاغب [33]- أمثل القولين، فإنّ اللّفظ إذا تداولته الألسنة ، واشتهر يصعب تبديله.

- القول في الأصل الملفوظ المفحم الذي لا يقبل الحوار أو الجدل ، باعتباره المتضمّن حقيقةً ثابتةً ، أو حكماً لا يقبل النّقض ، أو أمراً لا يقبل التّراجع .
- القول_خلافاً للكلام_يتضمّن الفعل ، أو يقتضيه ، ولذلك فقد يحلّ الفعل محلّه ، ويغني عن ذكره.
- أمّا الكلام فلا يتضمّن الفعل بالضّرورة ، ولذلك فلا يحلّ محلّه شيء ، ولا يغني عن تكلّم كلامه شيء آخر غير ذاته.
- القول ، في الأصل، موسومٌ بالأحاديّة؛ أحاديّة موقع القائل ، وأحاديّة الفاعل القائل ، وأحاديّة الموضوع ، وأحاديّة الرّؤية والصّوت ، وأحاديّة التأويل والقراءة ، وأحاديّة الخصائص والسّمات ، ولذلك يمكن وصفه_كما سبقت الإشارة_بأنّه يتضمّن خطاب السّلطة النّافذ في المتسلّط عليهم.
- في حين الأصل في فعل التكلّم الحيّ أنّه موسومٌ بالتّعدديّة التي تشمل : تعدديّة مواقع التّكلّم ، وتعدديّة الفاعل المتكلّم ، وتعدديّة الصّوت المتكلّم ، وتعدديّة أشكال التّكلّم ...لذلك يمكن وصف الكلام بأنّه ينطوي في الأصل على خطاب المعارضة ، أو خطاب الفرد في مواجهة السّلطة ، أو في مواجهة خطاب السّلطة التي تفرض أقوالها على النّاس ، أو التي تقوّل النّاس ما لم يقولوا.
- إنّه (القول) يمثّل خطاب الاستتباع ، أو خطاب فرض التبعيّة وتنظيمها ، ولذلك غالباً ما تنسب الأقوال ، في النّهاية ، إلى من يمثّلون رموز السّلطة: السّياسيّة ، والاجتماعيّة ، أو العقليّة ، أو القانونيّة ، من الملوك والحكماء والفلاسفة والمشرّعين القانونيين ، فيقال: هذه أقوال الملوك ، وأقوال الحكماء ، وأقوال المنظّرين القانونيّين .

- فالأقوال إذن ، تمثّل خطابَ السّلطة العمليّ الذي يلزم النّاس بفعل شيء ما أو تركه ، ولذلك فهو خطاب جارٍ على ألسنة رموز السّلطة ، أو الممثّلين الحقيقيّين لها ، أي على لسان القَيْل ، أو من يرمز له تحديداً ، أو على ألسنة الكَهَنَة والمنجّمين، فهي ما يُقوّله النّاسُ ، أو ما يجري على ألسنتهم دون اختيار منهم .
- على أنّه (القول) قد يكون كلامُ الوحي أو الإلهام الصّادر عن الملهم (الله) ولكنّه الجاري على ألسنة بعض أولياء الله.
- الأقوال قد يتمّ تداولها عبر إمكانات الكلام (اللّسان_اللّغة). وقد يتمّ تداولها عبر إمكانات الفعل (السّلوك أو الممارسة) ، أي من خلال تمثّل مضمونها في واقع الحياة اليوميّة .
- القول ملفوظ السّلطة الموسوم بالإيجاز والتّركيز أو التّكثيف، القوّة والتّماسك ، سرعة النّفاذ في المتلقي ، سرعة الانتشار والتّداول.
- أمّا الكلام فهو ملفوظ الذّات الحيّ أو الحيويّ الذي يستمدّ حياته وحيويّته من حياة وحيويّة المتكلّم؛ حياته وحيويّته على أرض الواقع ، أو على أرض اللّغة والخيال.
- الكلام في الأصل_خلافاً للقول_مشروط بحضور المتكلّم من جهة (بحضوره في حضرة كلامه؛ متضمّناً حضوره في حضرة ما يتكلّم عنه ، وفيه، وبه ، وإليه) أعني في حضرة ما يتحقّق حضوره في إطاره ، باعتبار أنّه ما يعنيه أو ما يهمّه بالذّات ، كلّما تكلّم ، أكان من البشر ، أم من الحجر ، فما يعنيه أو يمثّل موضوعاً لهمّه هو ما يدفعه إلى التّكلّم باستمرار.
- في الكلام تستمرّ الصّلة بين المتكلّم والكلام أو بين الباثّ والمبثوث ، الملفوظ واللاّفظ.
- وهذا بخلاف القول الذي تنقطع فيه الصّلة بين القائل والمقول؛ فهناك فرق بين أن أقول : هذا كلام فلان ، وأن أقول : هذا قول فلان ، فقولنا هذا كلام

فلان، يتضمّن معنى قولنا : إنّه كلامه الذي لا يزال يتكلّمه ، أو الذي لا يزال يمثّل شرط وجوده . أمّا قولنا هذا قول فلان ، فيتضمّن القول ، إنّه قوله الذي قاله وانتهى، وهذا يعني أنّ فعل التّكلّم الحيّ مرتبط أو مشروط بحضور المتكلّم، على معنى أنّه يستمدّ فاعليّته؛ قوّته وتأثيره من عنصرين اثنين: مِنْ المتكلّم، ومن سياق التّكلّم ، وهذا بخلاف القول الذي يستمدّ قوّته؛ سلطته ، وتأثيره من المقول ، أو من طريقة القول (من الشّكل أو من المضمون) أو منهما معاً.

- فالكلام إذن يستدعي_عند تحليله_استحضار صورةِ المتكلّم ، إضافةً إلى سياق التكلّم ، وهذا بخلاف القول الذي يستدعي_عند تحليله_استحضار صورة المقول ، صورة الحقيقة ، أو صورة المعنى المعبّر عنه.
- لذلك فالكلام أكثر انفتاحاً على المتكلّم منه على المخاطَب. وهذا خلافاً للقول الذي يعدّ أكثر انفتاحاً على المقول له من القائل.

-15-

- وهذا يقتضي القول: إنّ بنية القول لا تنطوي_بالضّرورة_على عنصر القائل ، في حين بنية الكلام تنطوي_بالضّرورة_على عنصر المتكلّم ، بوصفه محور الكلام ودائرته.
- بنية القول تنطوي_بالضّرورة_على عنصر التّأثير والقوّة؛ قوّة التّأثير في الآخرين. في حين بنية الكلام لا تنطوي_بالضّرورة_على عنصر التّأثير والقوّة (نود الإشارة هنا إلى أنّه في حال غياب هذا العنصر، على مستوى بنية الكلام كملفوظ، يحلّ محلّه عنصر المتكلّم، باعتبار حضور المتكلّم في كلامه هو الذي يفرض سلطة الكلام علينا؛ قوّته وتأثيره فينا).
- بنية القول تنطوي_بالضّرورة_على عنصر المقول له ، السّامع أو المخاطِب المباشر والفعليّ ، فلا قول دون مقول له/مخاطَب، في حين بنية الكلام لا تتضمّن_بالضّرورة_عنصر المتكلّم إليه ، كمخاطب فعليّ أو مباشر، وإن كانت تتضمّنه كمخاطب ممكن أو ضمنيّ.

- بنية القول تفتقر إلى عنصر التّحديد أو التّعيين، أمّا بنية الكلام فتعدّ بنيةً مفعمةً بعناصر التّحديد أو التّعيين.
- بنية القول هي بنية الكلام الأدائيّ ، ولذلك فهو لا يحتاج إلى متابعة ورعاية قائله (بنية مغلقة دون القائل) . وخلافًا لذلك بنية الكلام التي تعدّ، بحقّ ، بنيةً مفتوحةً على المتكلّم، فهي بنية في طور الإنجاز الدّائم.
- بينة الكلام بنية حوار صريح أو ضمنيّ ، أو قل إنّ بنية الكلام تنطوي_بالضّرورة على العنصر الحواريّ بامتياز ، في حين بنية القول لا تنطوي_بالضّرورة_على العنصر الحواريّ.
- بنية الكلام تنطوي_بالضّرورة_على عنصر التّفاعل والفعل ، أو التّأثر والتّأثير (الجدل) . في حين بنية القول لا تنطوي_بالضّرورة_على عنصر التّفاعل والجدل بالمفهوم المحدّد آنفاً، بل تنطوي على عنصر السّلطة ، أي على عنصر التّأثير وتوجيه الإرادة فقط ، أو على قوّة التّأثير النّاتجة عن قوّة الصّياغة ، أو الرّاجعة إلى سلطة المرجع.

هوامش البحث:

1. ينظر: لسان العرب ، مادة (كلم).
2. ينظر: مادة (القول) في لسان العرب.
3. (البقرة: 169).
4. (الكفويّ (أبو البقاء) : الكليّات، معجم في المصطلحات والفروق اللغويّة ، مؤسّسة الرّسالة ، بيروت ، ط2 ، 1993م :711).
5. [المجادلة / 8].
6. من بحر الرجز. ولم يعرف قائله، وهو في اللسان (مادة قول). وفي الخصائص 23/1.
7. (ق:16).
8. الحديث في لسان العرب (مادة قول).
9. (ينظر: نفسه).
10. (المزّمّل:4).
11. بمعنى تجري ملفوظ قولها فيه مجرى الحزن والبكاء عليه، أو مجرى التوجّع والتّحَسّر.
12. (الحاقة:44).

13. لمزيد من ايضاح هذه النقطة ينظر: الحميري (عبدالواسع) : الخطاب والنّص: المفهوم- العلاقة-السّلطة" المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر(مجد) بيروت، ط1، 2008م: 34.
14. (ق: 17).
15. (سبأ:30).
16. (المؤمنون:67).
17. (القصص:50).
18. (الحج:23).
19. (الحاقة: 40، 41).
20. (ينظر: هيدجر (مارتن) : إنشاد المنادى، تلخيص وترجمة. بسام حجار، المركز الثقافي العربي ، ط 1، 1994م: 44).
21. (ينظر: زنياك (زتسيسلاف) : مدخل الى علم النّص، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط أولى، 2003م:23) .
22. (الجرجاني (علي بن محمد بن علي) : التّعريفات، تح: ابراهيم الأبياري، دار الكتاب العربيّ ط1، 1985م"مادة القول":180).
23. (ينظر: مدخل إلى علم النّص، مرجع سابق: 38) .
24. (نفسه : 28) .
25. (نفسه : 29) .
26. (ينظر:إنشاد المنادى، مرجع سابق: 44).
27. (ينظر: لوفيغر(هنري): اللّسان والمجتمع، تر:مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1983م: 357).
28. (يوسف:54).
29. :مريم 10).
30. (ينظر: ابن كثير، مكتبة النّهضة الحديثة، القاهرة ط1، 1965م: 3 /120).
31. (النّساء:13).
32. (ينظر: تفسير ابن كثير: 2/ 62. قيل: نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمّد، فإن حكم بالدّية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. وقيل بل نزلت في يهوديّين زنيا، وكانوا قد بدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرّفوه، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة... (ينظر: نفسه).
33. (مادة كلم في معجم ألفاظ القرآن للرّاغب الاصفهاني: 457، 458).